نار الياس وضئتها (أضفناها) للكنيسة وحطو فتها . . . (١ وعلوا الافرنج كاس فضة والبير علوا صليب وكان ذلك على يد الـ . . . (٢ المهتم في ذلك المطران . . . (٣ نسأل كلّ انسان يقرا هذه السطور يذكرنا عقيب صلوته »

ساعة شيخ البلد

للاب انطون رباط اليسوعي (تتمة)

فحجزتْ رأي الشيخ واستديرتهُ فدبّ دابّتـهُ فمرحت وغاب عن ناظرنا مخلّفًا بعدهُ الخوف والاضطراب

قال شارل: قد راعنا الشيخ والاجدر بنا ان نتبع مشورتهُ فنعود على الاعقاب

قلت: واي خوف علينا وماذا اتينا من الاثم انّ الضمير السليم لفي كنف العناية الالهيّة فلا يمسّهُ ضرّ

قال شارل: أرأيت كيف كان يرشقنا باللحظات

فاجبتهُ: دع الاوهام ولا ترتعد للحظاته واغانيهُ اراد ان يهزأ بنا او هو احد المغنّين جاء للموسم يسوءه رؤية من عزم على ان يباريه في الغناء ويشاطره في المكسب

فراق هذا التعليل في اعيننا وجهدنا ان ننفذ تخويفه رواءنا ظهريًا ولا نعبأ به. ثم سرنا نجدّ فتأنّقنا الرابية بقدم ثابتة رغمًا عن الثلج المطّال الى ان بلغنا ذروتها فاذا ساحة فسيحة في صحنها اشجار مصطفة على قياس شطرنجي تتناطح النجوم بزؤوسها الشامخة وادواح وارفة الافنان كأنّها السحب عرضًا وعلوًا. وجعلنا نجول في انحاء الساحة نشرف من كل اطرافها على مشاهد لا مثيل لهُ من جبل وسهل ووادٍ قد زانتها الخالق بالجمال والخصب وحلّتها الشمس بحمرة الشفق تتلألأ على بياض الثلج المختلط بخضرة المروج ولم تُملِ العيون من مرآها البديع لما لحقنا من لفحات البرد وكانت ليلة قرة فانحدرنا مسرعين على رجاء العود في الغد ثم دخلنا المدينة نسأل عن نزل الفرس الاحمر فسرنا بين طرق ضيقة تتزاحم فيها العمارات وتتلاصق البيوت والناس قد تقاطروا للموسم من كل وجهة

١ و ٢) مسحرّة

٣) وقع اسم المطران وهو انطونيوس السابق ذكره

وصوب فنهضت بهم الاسواق والفنادق الى ان وصلنا الى باب ضخم تعلوه صورة فرس اجر وهو الفندق المطلوب فدخلناه. فتقدمت الينا خادمة النزل مرحبةً بنا فاستقبلتُها فاذا هي حنَّة قريبتي وخطيبتي فسلمتُ عليها فردَّت السلام ورحبت بي وسُرَّت بالتلاقي لطول افتراقنا. ثم قالت: ادخل الى القاعة مع اصحابك وساعود اليكم. فلبينا دعوتها وفتحت الباب فاذا ديوان مظلم متَّسع الارجاء مستند على اعمدة من خشب قد غصَّ بالمئين من الزوَّار والمسافرين يشربون الجعة ويماقرون الخمر وقد تصاعد دخان غلايينهم كغمام اسود فسد به الهواء وجعل القاعة اشبه شيء باقران معامل الحديد وقُمُن المعادن. وفي الصدر صاحبة الحانة عجوز دردبيس مضبورة الخَلق جالسة امام مائدة صفَّت عليها زجاجات ودساتج من الخمر والجعة وهي تترصد الزبون. فسألتها ان تعيِّن لنا مكانًا منفردًا رخيص الاجرة نأوي اليه وان تبعث الينا شيئًا من الخبز والقديد. فنظرت الينا نظرة الامتهان لما رأت من ثيابنا الرثة واجابت ان الضيوف الموسرين كثيرين في منزلي ولم يبقَ الَّا علِّيَّة من خشب بنيتها على السطوح آجرها الليلة بثلاثة فرنكات

قلتُ: لا بأس

فصرخت بصوت كالرعد القاصف: حنَّة

— نعم سيدتي

— سيري امام هؤلاء الى العلِّيَّة وأعطيهم ما يريدون وعودي حالًا

فتقدَّمت حنَّة ونحن نتبعها الى ان وصلت بنا الى مخدع والاحرى ان نقول الى كوخ مستندة جدرانه الى منازل الجيران لالتصاق البيوت بعضها ببعض ثم جاءتنا بما نحتاج اليه من الطعام وبقليل من الحطب فاشعلنا في الموقد نارًا نتصطلي. وفي غضون ذلك كانت مولاة حنَّة تدعوها بصراخ يرنّ في آذاننا: الى متى تتأخرين يا خادمة السوء. ان هذه الابنة ستخسرني كلَّ مالي بكسلها

وكنتُ اوقف حنَّة لاستطلعها طلع احوالها ولكن لم تدع الخبزون سبيلًا الى ذلك. فخرجت ثم عادت بعد قليل قائلة: هل معكم اوراق تنبئ بحرفتكم ؟

— ولِمَ

— لان في المدينة زمرة من الاشقياء يقتلون ويسرقون ولم تتمكن الحكومة من

القبض عليهم فبثت العيون في كل الانحاء وامرت الشرط ان ينظروا في اوراق المسافرين ويشددوا على المارين

فارادت ان تزيدني ايضاحاً لكن صراخ سيدتها كان قد ملأ الخافقين فاسرعت مهرولة وتركتنا

قال ألفريد: اخاف من هذه الانباء البينة واخشى ان نضحي فريسة القتلة

فاجبته: هيَّ على الطعام وسكّن الجأش لا خوف علينا ما دامت سيرتنا صالحة وسريرتنا لا غشَّ فيهما

قال شارل: لم ارَ قط قاتلاً فما اعظم ما يكون حظي اذا سهّلت لي المقادير ان ارى الليلة احد اصحاب القتل والنهب فامسكهُ واوسعهُ ضرباً واشدّ اساره

فقاطعهُ الفريد: اسكت وقانا الله من هذه الحوادث المشؤمة

قلت: ألا ترى يا شارل ان الفريد اجزع من الضبّ فدع ذكر الخاوف والّا لانقطع صوته رعباً وكفَّ يوم غدٍ عن الغناء فنعود صفر اليدين

فاكلنا واخرج كلٌّ غليونه فدخنا الى ان دقّت ساعة البلد نصف الليل فامتدَّ كل منّا على حدة وقد التحفنا بالاعبنة واردنا النوم

قال الفريد: أسمعُ حَسَّ اقدام على السطوح غير بعيد عنا. فرفعنا جميعاً الرؤوس ومددنا الاعناق فاذا امام الشباك علج كالجبّار بيده سكين او ساطور. فاخذ منا الرعب كل مأخذ فارتعش الفريد واقشعر وتلجلج لسانه فاختبأ وراءي لا يبدي حراكاً وكنا ننظر الى زائرنا المشؤوم لا نرى للخلاص سبيلاً ونحن عُزّل لا سلاح لنا الّا المزمار والقيثارة. وبعد هنيهة دفع العلج الشبّاك بهدوء ففتحهُ وجعل ينظر ما حوله ويدير سكينه وعيناه تتوقدان شرراً كأنهُ مزمع ان يفتك بنا

ثم تدلّى فنزل واقترب من النار واظنهُ لم يرنا فقلت في نفسي: ان تقدم اليَّ دافعت عن روحي فاما انجو بقتله او اموت ميتة الشجعان. ثم جلس على كرسي واخرج ساعة من جيبه فوضعها على مائدة الموقد وهو ينظر يميناً وشمالاً ويلعب بسكينه ويبربر بربرة الزنوج وبعد دقيقة ظننتها شهراً تسلق بالشباك وعاد من حيث اتى فاستثبته عندئذٍ فاذا هو شيخنا بشير السوء صاحب البغلة فعادت الينا ارواحنا. فاذا ساعته قد نسيها على الكرسي فسددنا الشباك سدّاً محكماً خشيةَ ان يعود وفتحنا الباب حتى اذا ما جاء

فررنا بالدرج وطلعنا العونة . ولبثنا ساهرين الى ان بزغ الفجر ولم يعد زائرنا المشؤوم فانفرج عنّا غمّنا واجمع رأينا على انهُ هو القاتل المجهول الذي ذكرتهُ حنّة . فعوّلنا على ان نذهب صباحاً الى المحكمة فنسلّم الساعة التي تركها شاهدًا عليهِ ونعلم اصحاب الامر بحقيقة الحال

وكنت اخذت الساعة اقلّبها فانتشلها شارل من يدي وهو يرعد ويبرق غضباً على زائرنا ويفتخر ان لولا شجاعته لمتنا لا محالة ثم قال: انا آخذ الساعة الى دار الحكومة وأُطلع الشرط على سرّ القاتل

فلم اعانده خوفاً من عربدته

ثم نزلنا من حجرتنا ودخلنا القاعة نأكل شيئاً قبل ان نخرج على دار الحكومة ثمّ نذهب الى الموسم فلم نكد نمدّ يدنا الى الطعام الّا والشرط احاطوا بالخانة فدخل رهط منهم وهم يتحادثون سرًّا فسمعتهم يقولون: يا لله كيف توصل السارق من الدخول الى حجرة شيخ البلد . لا بد من البحث والتنقيب وبث العيون

ثم تقدم احدهم وقال: ايها الحضور بامر الحكومة يجب ان نرى هل اوراقكم منتظمة لئلا يحدث لاحدكم ما يكون سبباً للتُّهم والظنون

وبينا كان كل يبرز تذكرتهُ تقدمتُ لاظهر لتلك الشرط ما منعني وصاحبيَّ على الحصول عليها . امّا الفريد فزاد اضطرابه وهمّ ان يخفي الساعة التي كانت بيده فلحظها احد الشرط فاختطفها وقال: ساعة شيخ البلد فُقدت الليلة . فهتف الجميع هم اللصوص القتلة . فانقضّوا علينا انقضاض الباشق على العصفور وعلا الصياح وكثر الهرج والمرج وشارل قد أُرتج وامتُقع لونهُ اصفرارًا . فتقدمتُ لاصرح بالحقيقة فلم يعبأوا بي فرأيت في الفرار نجاة لي اغتنمتها عسى اخلص فاجد سبيلاً لخلاص رفيقيَّ . فخرجت وتبعتني حنّة باكية وقالت: انزل الى مستودع الخمر واختبئ والّا احسّ بك القوم . فنزلت . وقضيت نهاري في الظلمة والبرد وراء برميل وكانت حنّة تزورني مرةً بعد مرة كئيبة لا تتجرأ ان تخاطبني لما داهمها من الغم ولئلا يطلع القوم على سرها . فطلبت اليها ان تخرجني من محبوسي اذا ما جنّ الليل فوعدتني . فلبثتُ في اسوأ الاحوال اسمع ضجة الزوّار ولعناتهم على اللصوص القتلة واعلل النفس بالنجاة الى ان غابت الشمس واظلم حبسي . وبعد هجعة من الليل سكنت الحركة وانا بانتظار حنّة احسب الساعة

شهراً فسمعت صراخ صاحبة الخانة وهي تخاطب حنّة أن :عودي الى القاعة فصفّي الكراسي وانا انزل فارى ما بقي عندنا من الخمر

قالت حنّة : دعيني يا سيدتي اذهب فقد اضناكِ التعب

فاجابتها : ان هذا يعنيني

— لكنّ القبو مظلم رطب فيؤثر في صحتكِ

— اراكِ الليلة فصيحة مجتهدة على غير عادتك ذريني واذهبي

ثم اشعلت شمعة وتقدمت وحنّة خارجاً مضطربة تتضرع الى الله ألّا تراني سيدتها فاقع وتقع في شر بليّة . امّا انا فكنت اتقلّب على احرّ من جمر الغضا وقد عيل صبري واعياني التعب فسمعت العجوز تتبرر وتبدي سوء خلقها ثم تقدمتْ الى حيث كنتُ وانا ارجع القهقرى الى الوراء كلّما تقدمتْ . فوقع نور شمعتها على وجهي فرأتني وصرخت صراخاً ارتجّ لهُ المكان فسرتُ اليها مستغيثاً : لا تخافي يا سيدتي لست لصّاً ولا قاتلاً ناشدتكِ الله لا تُعلني امري . . . بحياتكِ . . . ها اني ذاهب ولم اختلس شيئاً اشفعي بي ارحميني . . .

فلم تعِ اقوالي وكان يعلو صراخها : يا سكّان البلدة يا جنود قتلني . سفك دمي . امسكوه . اقتاره . فتسلقتُ السلم واذا الباب مفتوح فخرجت هائماً على وجهي والثلج يتساقط عليّ والبرد يلفحني فركضت امامي كالمجنون من طريق الى طريق لا ادري اين اذهب اسأل الله ان ينجيني من هذه البلوى وبعد ساعةٍ وقفتُ فاذا انا على باب الخانة قد عدت الى ما كنت هاربًا منهُ وقد اجتمعتْ على البابِ الجموع لما شاع ان اللصوص قتلوا صاحبة الخانة

فلم استطع العود لئلا تُرتاب بي العيون فتجلّدتُ ودخلت كاني غريب اجهل ما حدث فلم يعبأ بي احد ولمّا رأتني حنّة صرخت : انت هنا . فهمستُ اليها ان اسكتي واتيني بشيء من الطعام والشراب وكان الحاكم يستنطق المرأة وهي تقول : رأيتهُ هو هو ونيس اللصوص مع زمرة من ذويهِ

— وكم كان عددهم ؟

— اكثر من عشرين

— كم لهُ من العمر تقريباً

— نحو الخمسين سنة وبيده خنجر اراد ان يطعنني به فدافعتُ عن نفسي لانك تعرف حلاوة الروح فحششتهُ وامسكتهُ لكن ذويه احاطوا بي من كل جانب وخلصوه وهربوا. لا بدَّ من شنقه والَّا اصبحنا في خطر دائم

فخطَّ القائد على دفتر يده كل ما قالتهُ العجوز. ثم قال: كوني براحة قد عرفتُ وهذه بالحقيقة علاماته وغدًا نعود بالمجرمين لاستنطاقهم. قال هذا ثمَّ خرج الجميع

امَّا انا فطلبت مخدعًا للنوم لان التعب كان قد اعياني فأقفلت الباب وحثوتُ على ركبتيَّ طالبًا معونة الله وشاكرًا لهُ ولم افق الَّا لضجة القوم يتصادون عبدًا ممَّن أُلقيت عليهم التهمة فقمتُ حالًا وصليت الى الله كي يهديني الى خلاصي وخلاص الابرياء وصعدت الى العلية حيث قضينا ليلتنا الاولى فاذا على الثلج آثار اقدام شيخنا المشؤوم قد جاء على عادته فعوَّلت على ان اشرح حقيقة الامر باجمعه. ولمَّا عدت كان الاستنطاق جاريًا والحاكم بيده الساعة برهان الجرم فتقدمت وقلت جهارًا ان هؤلاء جميعًا ابرياء فالساعة انا وجدتها وانا اختبأت في القبو وان اجزت لي اطلعتُك سرًّا على حقيقة هذا الامر

فانفردنا عن الحضور واخبرت الحاكم بكل ما كان مفصلًا ثم قلتُ: وبرهان مقالي هلمَّ بنا الى العليَّة ها آثار الاقدام على الثلج واظنهُ سيعود

قال: اني لاعجب من مقالك وسنرى في الامر

فقيد الاسرى الى الحبس ولمَّا اظلم الليل صعدت واياه مع جنديين واختبأنا في العليَّة الى ان اقترب نصف الليل فاذا زائرنا عائد كالمرة الاولى والسكين بيده ففتح الشباك ولم يكد يصل الى الارض الَّا وقد امسكناه فصرخ ثم حسبنا بمائع يسيل على ايدينا ثم شهق شهقة الموت وسقط فاشعلنا الشمعة فاستثبتهُ الشرط فاذا شيخ القرية بنفسه وسكينه في صدره وقد لفظ روحه

فانتشر الخبر في المدينة ولم يعرف قط احد هل صنع ما صنع في يقظة او منام وكان قوم يدعون انهُ شرير وقوم ينكرون

قال الراوي: امَّا انا فتحقَّقت انَّهُ في يقظة وانَّما فعل ما فعل حسدًا لانهُ كان من كبار المنيين وهو يؤمل في نوال السباق فخاف ان نسلبهُ اياهُ فتعرَّض لنا وصمَّم على ايقاعنا في حبائله فدارت عليه الدوائر.